جوزيه ساراماغو

# سنةُ ألفٍ وَ٩٩٣

ترجمة: أمارجي



جوزيه ساراماغو

José Saramago

# سنة ألف و 993

El año de 1993

ترجمة: أمارجي



# سنة ألفٍ و 993

جوزيه ساراماغو | ترجمه عن الإيطالية: أمارجي

العنوان الأصليُّ للكتاب: **El año de 1993**

العنوان بالإيطاليَّة: **L'anno mille993**

الطبعة الأولى 2019

ISBN: 978-1-912619-48-1

**نسخة شرعيَّة ومرخَّصة بموجب اتفاقية مع منشورات Mauro Di Rosa**






RawashenPub  Rawashen

info@rawashen.com | www.rawashen.com

جوزيه ساراماغو

# سنةُ ألفٍ و993

ترجمة: أمارجي



# مقدمة

قبل أن يتحوَّل جوزيه ساراماغو (1922–2010) في الثَّمانينيَّات إلى الرِّوائيِّ البرتغاليِّ صاحبِ أكثرِ التَّآليف قراءةً وإثارةً للإعجاب بين القرَّاء في العالم، وقبل أن ينال «نوبل» للآداب ويتحوَّل إلى اسمٍ طبَّقَتْ شُهرته الآفاق، كان صِحافيَّاً وشاعراً وكاتباً مسرحيَّاً. لو أنَّه لم يكتب الرِّواية لما تداول النَّاس اسمَه كشاعرٍ، ولَمَا تَذكَّرَ أحدٌ ديوانيه الشِّعريَّين: «قصائد محتمَلة» الصَّادر سنة 1966، و«الفرحُ احتمالاً» الصَّادر سنة 1972.

لقد أثارَ جوزيه ساراماغو نفسُه هذه القضيَّة في مقدِّمة أوَّل إعادةِ إصدارٍ للطَّبعة البرتغاليَّة لأشعاره، حين قال: «وقد يتساءل المرءُ: هل كانت هذه الأشعار (كلمةٌ نادراً ما تُستعمَل اليوم، ولكنَّها مناسبةٌ جداً لهذه الحالة) تستحقُّ أن تنال فرصةً ثانيةً، أم أنَّ هذه الفرصة أُمْلِيَتْ مصادفةً بسبب إثباتات المؤلِّف في مجال التَّخيُّل السَّرديِّ؟».

وبعبارةٍ أخرى، يتساءل الكاتب البرتغاليُّ: هل نحن أمام استحقاقٍ شعريٍّ يفرض نفسه، أم أنَّنا إزاء ظاهرةٍ بسيطةٍ ومتواترةٍ للاستفادة من شهرة الاسمِ لتسويق منتوجٍ ما على صعيد النَّشر؟ هل تحتفظ القصائد لنفسها بقيمةٍ مستقلَّةٍ شعريَّاً؟

يبدو أنَّ ساراماغو بانعطافته التَّاريخيَّة نحو الرِّواية ونحو الشُّهرة التي أكسبه إيَّاها عالمُ الخيال السَّرديِّ، نَسِيَ أنَّه شاعرٌ في العمق، ولولا تلك الشَّاعريَّة لديه لما صار ـ ربَّما ـ ذلك الرِّوائيَّ المميَّز، وشاهدُ ذلك ليس شعره فحسب، بل صفحاتٌ كثيرةٌ من رواياته أيضاً، من أمثال رائعته «سنة موت ريكاردو ريس»، ومن ممارساته في الحياة العامَّة، كزيارته لإقليم تشياباس، ومقابلته لماركوس، القائد العامِّ لانتفاضة الفلَّاحين، وزيارته لرام الله لفكِّ حصار الجيش الإسرائيليِّ عن "المقاطعة"، وأخيراً هذه القصائد التي تشي بعمق الرُّؤية وبحساسيَّةٍ شِعريَّةٍ مختلفةٍ تجاه الكلمات والأشياء.

إنَّ في قصائد ساراماغو دقَّةً، وحساسيَّةً، وقصديَّةً عميقةً، ونبرةً وإيقاعاً لا يمكن أن يخطئها قارئُ الشِّعر، وهي قصائد عاصرَتْ مرحلةً دقيقةً من تاريخ البرتغال، السَّنواتِ الأخيرةَ من ديكتاتوريَّة سالازار، ولكنَّها لا تتجاوز تلك المرحلة؛ لأنَّ الشَّاعر حينذاك كان قد توقَّف عن كتابة الشِّعر، وبدأ يتحوَّل تدريجيَّاً إلى كتابة الرِّواية. يقول ساراماغو في إحدى قصائد الدِّيوان، تلك الموسومة بـ «أيادٍ نظيفة»: «عن حركة القتل بكلتا اليدين/ طريقةُ عجنِ الخبز ليست مختلفةً (كم هو جيِّدٌ هذا التَّقدُّم! يا لها من راحة! زرٌّ على اليمين يعطي الخبز، وزرٌّ على اليسار، بسهولةٍ أُطلقُ بهِ ـ دون أن أرى ـ قنبلةً طائرةً، وأُصيبُ العدوَّ)».

ولكنَّ قصائد ساراماغو ـ كما هو شأن يوميَّاته ومقالاته ـ تهمُّ المختصِّين والمهتمِّين بأدبه وعشَّاق كتاباته بدرجةٍ أكبر؛ فهي تروي بعضاً من ظمأ المنبهرين بقدرة هذا الكاتب على السَّرد، وبشخصيَّته بوصفه كاتباً يحترم إلى أبعد الحدود معنى الالتزام أخلاقيَّاً بقضايا الإنسان الكبرى، ولأنَّ ساراماغو لمَّا اختار أن يكون روائيَّاً انتقل بالشِّعر إلى مرتبةٍ ثانية.

وليس هذا شأنه وحده؛ فلقد حدث الأمرُ نفسُه مع خورخي لويس بورخيس، وخوليو كورتاثار، وروبيرتو بولانيو، وخوسيه إيمليو باشيكو، وخوسيه ليثاما ليما، ومانويل ريفاس، وأندريس طرابييو، وغيرهم.

فَهَجْرُ جنسٍ أدبيٍّ إنَّما يكون دائماً لصالح جنسٍ آخر، وقلَّما يَخلق ذلك قرَّاءً جُدُداً؛ لأنَّه يرسِّخ الكاتب أو الشَّاعر هنا ويزيحه هناك، وهذا ما حدث مع الأوروغوانيَّة كريستينا بيري روسي التي عدَّتْ نفسها دوماً شاعرةً، علماً أنَّها كروائيَّةٍ أفضلُ منها كشاعرة، حسب النُّقَّاد.

غير أنَّ ساراماغو، في أعماله الشِّعريَّة الكاملة ـ إلى جانب الدِّيوانَين المذكورَين آنفاً ـ يضيف ديواناً شعريَّاً آخر عَنونَه بـ «سنة ألفٍ و993» وضمَّ فيه نصوصاً نثريَّةً تقترب من الشِّعر، ولكنَّها تنطوي على الكثير من القواسم المشتركة مع رواياته التي ستأتي تِباعاً فيما بعد، وهي أبعد ما تكون عن ملامح الشِّعر الذي كتبه ونشره من قبل.

التَّاريخُ والدِّين والسِّياسة هي ثالوث أعمال ساراماغو، ولكنَّه يقدِّمها بأرقِّ الطُّرُق الممكنة مستعيناً بالمجاز حيناً، وبالسُّخرية حيناً، وبالفانتازيا حيناً آخر، ليقدِّم مادَّةً جماليَّةً صافيةً تتَّسق مع الفنِّ الرِّوائيِّ، وتضيف إليه طرائق جديدةً في السَّرد. من هنا، نلاحظ موقع السَّارد، وهو سؤالٌ مُلِحٌّ عند الكاتب البرتغاليِّ، إذ إنَّه ليس بالسَّارد الاعتياديِّ (فلا هو بالسَّارد العليم، بصورته المعروفة، ولا هو بالسَّارد المتكلِّم، ولا هو بالسَّارد المخاطِب).

نحنُ عادةً أمام ساردٍ ثالثٍ نكتشف مع الوقت أنَّه متورِّطٌ في الحدث؛ لأنَّه أحد أفراد الرواية. لقد اتَّبَع ساراماغو التَّرتيب الكرونولوجيَّ للأحداث، وهذا ما يُقرِّبه من الحداثيَّة الرِّوائيَّة، إلَّا أنَّه يكسر هذه الرَّتابة بكسر الإيهام، بكسرٍ بريختيٍّ يجعلنا نحن ـ القرَّاءَ ـ جزءاً من اللُّعبة، بينما يتحوَّل هو كساردٍ إلى شخصيَّة.

بتعبيرٍ آخر، يمكن اعتبار ساراماغو وارثاً شرعيَّاً لكافكا ولبورخيس، غير أنَّه أكثر تجسيداً منهما، وأكثر قرباً من السُّؤال الجمعيِّ، وهو حين يفعل ذلك إنَّما يتناول الجماعة كأفراد.

* * *

نحنُ في سنةِ 1974، أي قبل شهرٍ من الثَّورة التي قامت في 25 نيسان/ أبريل، والتي ستفتح الأبوابَ على مصاريعها أمام الدِّيمقراطيَّة (بعد سنواتٍ من الحكم الفاشيِّ في البرتغال)، إذْ حاولت مجموعةٌ من الجنود، انطلقَتْ من بلدةٍ صغيرةٍ، الإطاحة بالحكومة وتغيير النِّظام. من الطَّبيعيِّ أنَّ المحاولة قد مُنِيَتْ

بالفشل، ولكنَّ هذه الحادثة ألهبَتْ خيالَ ساراماغو وحرَّضَته على كتابة عمل ٍيمكن تعريفه بأنَّه «نموذجٌ أصليٌّ للتَّاريخ البشريِّ»، فهو وإن كان مبنيّاً على أحداث البرتغال، إلَّا أنَّه عملٌ قابلٌ لإعادة التَّشكيل والتَّكييف مع جميع الأحداث البشريَّة.

نُشِرَ ديوان «سنة ألفٍ و993»، إذاً، في عام 1975، بعد انهيار الدِّيكتاتوريَّة في البرتغال، وازدهار الحركة الشَّعبيَّة الثَّوريَّة التي أعقبت ثورة القرنفل، وبداية العمليَّة الدِّيمقراطيَّة؛ وهو يتألَّف من ثلاثين قصيدةً سرياليَّةً. ويُستَهلُّ العملُ بالإشارة إلى دالي، فدالي هو الفنَّان الوحيد القادر على تصوير أحداث سنة ألفٍ و993، والوحيد القادر على شحذِ الأناقة التَّخيُّليَّة عند ساراماغو لدرجة حَمْلِ هذا الأخير على ذِكْرِه في الفصل الأوَّل من ثلاثين فصلاً قصيراً. وقد اختيرَتْ سنةُ ألفٍ و993 لأنَّها، في ذلك الوقت، كانت تبدو سنةً بعيدةً جدّاً، بعيدةً إلى حدٍّ جعلَ المؤلِّف يأمل ألَّا تقع مثل هذه الوقائع أبداً، ولكنَّ هذا لا يحدث، بل يحدث ما لا يمكن تصوُّره.

ربَّما لن يكون القارئ مرتاحاً، في بعض الأحيان، حيال الأجواء القاتمة والكئيبة، والشَّخصيَّات المجازيَّة للفئران والعناكب والثَّعابين التي تُحصي الأنفُسَ كلَّ ليلةٍ، وحيال تشابُكِ بعض الفصول المشِطَّة في نزعتها الدِّراميَّة بما يجعل القراءة صعبةً بعض الشَّيء، ولكن ساحرةً بكلِّ تأكيد.

إنَّ سنة ألفٍ و993 سنةٌ رمزيَّةٌ، بعيدةٌ في الزَّمن، ولكن ليس كثيراً، عن الوقت الذي كتب فيه ساراماغو هذا العمل؛ ولكن اليوم، بعد أن تجاوزنا هذا التَّاريخ، يبدو هذا العمل عملاً نبويَّاً عمَّا سيكون عليه المستقبل. هل سيكون هذا هو الحال بالفِعل في المستقبل، أم ستأتي أعوامٌ أفضل؟ يزعم ساراماغو أنَّ أسعد الأوقات سوف تأتي في عام ألفين و93، على الأقلِّ بالنِّسبة إلى أبناء أبنائنا. هذا هو أمله في المستقبل، ولكنَّه أملٌ محجَّبٌ بغلالةٍ من الكرب.

ماذا يمكن القول أكثر من ذلك؟ إنَّ كلمات النَّقد أو التَّفسير تبقى عديمةَ الجدوى أمام كتابٍ واسع التَّأويل. إنَّه نموذجٌ أصليٌّ، وعلى هذا النَّحو ينبغي النَّظر إليه. ولا يبقى إلَّا أن نقرأه؛ أن نترك للمخيِّلة أن تقترح علينا دائماً دروباً جديدةً نسير فيها لصَوْغِ تاريخٍ جديد، تحت علامة «الإيروس» طبعاً.





# 1

تحتَ الظِّلال الحادَّةِ الحوافِّ، بسبب شمسٍ تبدو ثابتةً بلا حراكٍ، يجلسُ النَّاسُ في مشهدٍ من مشاهد دالي السُّرياليَّة.

حين تتحرَّك الشَّمسُ، مثلما يحدثُ أحياناً خارج اللَّوحات، تصبحُ الحدَّةُ أقلَّ، ولا يعرف الضَّوءُ أين يحطُّ ويرتاح.

ولا يهمُّ أنَّ دالي كان رسَّاماً من الدَّرجة المتوسِّطة حين رسم اللَّوحة اللَّازمة لأيَّام سنة ألفٍ و993،

لأيَّامٍ كهذه الأيَّام، يجلسُ فيها النَّاسُ في أحضان مشهدٍ طبيعيٍّ بين دعامتين خشبيَّتَين كانتا تشكِّلان باباً بلا جدرانٍ من فوقهِ وعن جانبيه؛

فليسَ ثَمَّ منزلٌ، ولا بابٌ، لا يمكن فتحه بحجَّةِ أنْ ليسَ فيه مكانٌ للفتح.

ثمَّةَ خواءُ الباب فحسب، وليس الباب؛

والنَّاسُ، ولا أحد يعرف عددَهم، ولا أحد أحصاهم، لا بدَّ وأن يكونوا على الأقلِّ اثنين، ذلك أنَّهم يتحادثون ويرفعون ياقاتِ سُتراتهم اتِّقاءً للبرد.

يقولون إنَّ شتاء العام الماضي كان أكثر عذوبةً، أو لُطفاً، أو وداعةً بكثيرٍ، مع أنَّ الكلمة، أيّاً تكن، ليست سوى ذكرى في سنة ألفٍ و993.

وبينما هـم يتحدَّثون ويتناولـون أشـياء مـهمَّةً كهـذه الـتَّنبُّؤات الموسميَّة،

يرسم أحد الأشخاص على التُّراب علاماتٍ غامضةً، علاماتٍ قد تكون تصويرةً، أو تصريحاً بحُبٍّ، أو كلمةً لم تُخترَع بعد.

يمكننا أن نرى الآن أنَّ الـشَّمس بعد لأيٍ لـم تعد ثابتةً، ومِـن ثَمَّ فإنَّ المشهـد الـطَّبيعيَّ أصـبح أقلَّ اسـتحضاراً لـدالـي مـمَّا كان في سطرِ البيت الأوَّل.

وها ظلٌّ ضيِّقٌ ومديدٌ، ربَّما لصخـرةٍ مؤسَّلةٍ مغروزةٍ في الأرض، أو لـدعـامـةِ بابٍ بعيدٍ بقيَ الآنَ وحـيداً، وبسبب وحـدته لـم يعد يجذب أحداً؛

هـا ظلٌّ ضـيِّقٌ ومـديدٌ يلامـسُ الإصـبع التي تخدِّشُ في تراب الأرض، ويشرع في التهامها

منتقلاً ببطءٍ إلى عظام مشطِ اليد، ثم متسلِّقاً الذِّراعَ بِنَهَمٍ؛

وبينما بعضُ النَّاس مسترسلٌ في الحديث،

يستغرق هـو في الـصَّمت، لأنَّ كـلَّ هـذا يحدُث بلا ألـمٍ ولحـظةَ إرخاءِ اللَّيلِ سدولَه.

## 2

يحتشدُ سكَّان المدينة الموبوءة بالطَّاعون في السَّاحة الكبرى، تلك التي أصبحت، الآنَ، معروفةً بالكبرى لأنَّه في جميع السَّاحات الأخرى كانت أنقاضٌ من الخرائب قد كُوِّمَتْ.

لقد أُخرجوا من منازلهم بأمرٍ لم يبلُغْ سَمْعَ أحد؛

ولكن، كما هو مكتوبٌ في الأساطير القديمة، فإنَّ أصواتاً أو أبواقاً أو أنواراً عجائبيَّةً يمكن أن تأتي من السَّماء، والجميع يريدون أن يكونوا حاضرين في تلك اللَّحظة،

فقد يحدث شيءٌ ما في العالم قبل الانتصار النِّهائيِّ للطَّاعون، شيءٌ قد يكون طاعوناً آخرَ أعظم،

ولذلك، ها همُ هناك في السَّاحة مَكْرُوبون وينتظرون في صمت؛

ولا شيء يبلُغ الأسماعَ سوى موسيقى هاربسكوردٍ هوائيَّةٍ ورقيقة،

موسيقى هُرُوبٍ ما ألَّفها قبل مِائتين وخمسين عاماً يوهان سيباستيان باخ في لَيْبِسِكْ–

حينئذٍ، يتساقطُ الرِّجال والنِّساء الفاقدو الأمل على أسمنتِ السَّاحةِ المشقَّق،

بينما تبتعد الموسيقى وترفرف فوق هشيمِ الحقول.



# 3

توقَّفَ المِصعد عن العمل، لا أحدَ يعلمُ متى، ولكنَّ الأدراج ما تزال صالحةً للاستخدام.

لا يهمُّ السِّرُّ وراء ذلك، ولكن من الطَّابق الأرضيِّ إلى الطَّابق العشرين ثَمَّ مرتعٌ للرِّياح وللطُّيور القليلة الباقية،

مع أنَّه قيل إنَّ في واحدةٍ من آلاف الغُرَف في المبنى امرأةً لم تتوقَّف حتَّى الآن عن أطول أنينٍ في تاريخ البشريَّة؛

ويُقال أيضاً إنَّ في غرفةٍ أخرى مقابلةٍ رجلاً ينتظر أن تنمو أظفاره طويلاً

إلى حدٍّ إغمادها في عينيها، وصولاً إلى تجويف الجانب الآخر من جمجمتها، لإسكات ذلك الأنين غير المرئيِّ، وفتح عينين جديدتين لها على عالمٍ وراءَ هذا العالم.

ولكنَّ الخَطْوَ الآنَ يمضي انحداراً، درجةً أدنى فدرجتَين أدنى فثلاث درجاتٍ أدنى، وها هي ذي الأقبية أو الطَّبقات السُّفليَّة أو الغرف المحصَّنة.

بين الطَّابقين الأوَّل والثَّاني ينفرج المِصعد عمَّا تبقَّى من البوَّاب ومن المدير العامِّ،

وإنْ كان من غير الممكن تمييز أحدهما عن الآخر ولا حتَّى السُّؤال عن ذلك.

مُصادفةً بقيَتْ جميع الأبواب مفتوحةً، أو ربَّما كانت لديها قوَّةٌ ما أبقَتْها مُشْرَعةً حتَّى آخر لحظة؛

وتلك بيِّنةٌ تجعلنا نفهم، دون الحاجة إلى درسٍ أفضل، الفرقَ بين الثَّروة المنقولة وغير المنقولة.

في الممرَّات وفي الغرف المحصَّنة تتطاير النُّوتات عِبْرَ تيَّارات الهواء مصحوبةً بتلك الخشخشة التي تُحْدِثُها الأوراق الجافَّة حين يلامس بعضُها بعضاً،

بينما سبائك الذَّهب تلمع في ضوءٍ من الغريب أنَّه لم ينطفئ بعد،

ضوءٍ أشبه بعفونةٍ مُتَفَسْفِرَةٍ وسامَّة.

# 4

بدأ استجوابُ الرَّجُل الذي غادر المنزل بعد ساعة حظر التَّجوُّل منذ خمسة عشر يوماً، ولم ينتهِ بعد.

يطرحُ المحقِّقون سؤالاً كلَّ ستِّين دقيقةً، أي أربعةً وعشرين سؤالاً في اليوم، ويطالبون بتسعٍ وخمسين إجابةً مختلفةً لكلِّ سؤال.

إنَّها طريقةٌ حديثة!

يعتقدون أنَّه من المستحيل ألَّا يعثروا على الإجابة الصَّحيحة بين الإجابات التِّسع والخمسين التي تُقَدَّم؛

ذلك أنَّهم يثقون ببراعة الحاسوب لمعرفةِ أيِّ واحدةٍ هي، وما علاقتها بالإجابات الأخرى.

وها قد مرَّ خمسة عشر يوماً لم يَنَمْ فيها الرَّجُل ولن ينامَ حتَّى يقول الحاسوبُ: لا حاجة لي بالمزيد، أو يقول الطَّبيب: لا حاجة لي بالكثير؛

وفي تلك الحالة، سيحصلُ على نومه النِّهائيِّ!

الرَّجلُ الذي غادر المنزل بعد ساعة حظر التَّجوُّل لن يقول لماذا خرج،

ولا يعرف المحقِّقون أنَّ الحقيقة تكمن في الإجابة السِّتِّين؛

وفي هذه الأثناء، يستمرُّ التَّعذيب حتَّى يعلن الطَّبيب

أنَّ الأمر لم يعُدْ يستحقُّ العناء.



# 5

الـمدينة التي لـم يعد يقطنها الـرِّجالُ مُـحاصَـرَةٌ الآنَ مِـن قِبَل أولئك الرِّجال؛

وينبغي ألَّا تمرَّ مــرورَ الــكرام الــمبالــغةُ الــمكنونةُ في كــلمةِ "مُحاصَرة"،

ففي كــلمة "مــطوَّقة"، أو في أيِّ مــرادفٍ آخر، حتَّى دون إثارة المسألة الخِلافيَّة حول التَّرادُف المثاليِّ، شيءٌ من المبالغة.

يمكث الـرِّجال حـول الـمدينة عـاجزين عـن دخولـها مـثلما هـم عاجزون عن مغادرتها إلى الأبد.

إنَّهم كـفراشـاتِ لـيلٍ منجـذبةٍ لـيس إلـى أضـواءِ الـمدينة التي انطفأت منذ أمدٍ بعيد،

بل إلـى الـصُّورةِ الـمفكَّكةِ لـلأسطح وقُنَن الأبراج، وإلـى الشَّـبكةِ غير المحسوسةِ لهوائيَّات البثِّ التَّلفزيِّ.

غيابٌ كبيرٌ يحرسُ في النَّهار أبوابَ المدينة،

ولـلشَّوارع ذلـك الـصَّمتُ الـهائلُ، صـمتُ الأشـياء التي كانـت مأهولةً ثمَّ أقفرَتْ.

صارت المدينةُ مَذأبة؛

ولأنَّ الـنِّظام الـطَّبيعيَّ لـلأشياء مـقلوبٌ هـكذا، صـار الـرِّجالُ في الخارج والذِّئابُ في الدَّاخل.

لا شيء يحدث قبل اللَّيل؛

فحين يهبط، تخرج الذِّئابُ لاصطياد الرِّجال ودائماً ما تصطادُ واحداً

يدخلُ في نهاية المطاف المدينةَ، تاركاً في طريقه مَسِيلاً من الدِّماء

هناك، حيث في أوقاتٍ أكثر سعادةً كان ينظِّم الولائمَ مع الأقارب والأصدقاء، وحلقاتِ التَّنكيت والسَّمَر

وحملاتِ صيدِ الذِّئاب!

## 6

ليس في الأرض مكانٌ يبلغُ من الجمال حدَّ إغرائنا على الانتقال إليه من مكانٍ آخر؛

ولكن ستكون ثمَّة مدعاةٌ لذلك إنْ رأيتَ في كلِّ ساعات النَّهار أفواجاً من النَّاس تتوجَّه إلى شارع التَّماثيل.

لا مساراتٌ ولا خرائط؛ ذلك أنَّ كلَّ الطُّرُق تؤدِّي إلى هذا الشَّارع، وليس إلى روما حيث التَّماثيل ما تزال وافرةً إلى اليوم، ولكن ما مِن تمثالٍ منها يُضاهي هذه.

ليس من الصَّعب الوصولُ إلى هناك، إذْ يكفي أن ينظرَ المرءُ إلى الأرض ويَتْبَعَ المساراتِ المطروقةَ أكثر من سِواها، تلك التي يميِّزها خطَّان من الرَّوث عن جانبيها.

سرعان ما تجفِّفُ الشَّمسُ الرَّوث، وإذا ما طحنه المطرُ، فإنَّه لا يطحنه أبداً إلى درجةِ إعادةِ الأرض إلى بعض البتوليَّة.

لقد تعلَّم الإنسان أخيراً أن يجدَ طريقَه من دون بوصلة، فما عليه سوى أن يمرَّ حيث مرَّ إنسانٌ آخرُ قَبْلَه.

يتقدَّم النَّاس متحدِّثين بأصواتٍ عديدةٍ، ومن وقتٍ إلى آخر ينفصل أحدهم عن المجموعة، وينتحي جانباً،

بينما يبتعدُ الآخرون بتلكُّؤٍ، يؤخِّرون الخَطْوَ لكيلا يصيرَ وراءَهم ذلك الذي سيرشدهم إلى الطَّريق؛

وما إن يجتازوا الأفقَ الأخيرَ حتَّى يَلُوْحَ أمامَهم شارعُ التَّماثيل.

لا روث في الأرجاء؛

وهاكُمُ خمسون تمثالاً من كلِّ جانبٍ، بيضاء بشكلٍ لا يُصَدَّق، ولكنَّ التَّناوبَ اللَّعُوبَ للأضواء والظِّلال عليها يجعل أطرافَها وقَسَمَاتِها تتحرَّك،

فتُظهِرُ للآتين من بعيدٍ كيف على الأرجح كان الأوَّلون،

لأنَّ هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنَّهم لم يكونوا مِن قبلُ كما هُمُ اليوم.

# 7

لدى قائدِ قوّات الاحتلال ساحرٌ في هيئة الأركان العامّة،

ولكنّ الشّعور بالشّرف العسكريّ، على الرّغم من التّنازلات التي قدّمها في حالاتٍ أخرى، منعه دائماً من استخدام القوى الخارقة للطّبيعة للانتصار في المعارك.

لا يتدخّل السّاحر إلّا عندما يرغب قائد قوّات الاحتلال في استخدام السّوط،

في هذه المناسبات، يتجوّل الاثنان في ضواحي المدينة، وحين يبلغان موضعاً عالياً، يستحضرُ السّاحر قوىً خفيّةً تصيّرُ المدينةَ في حجمِ جسم الإنسان؛

حينئذٍ يقوم قائد قوّات الاحتلال بفرقعةِ السّوط ثلاث مرّاتٍ في الهواء، ليعوّد ذراعَه عليه، ثمّ يشرع على الفور في جلد المدينة حتّى ينال منه التّعَب؛

فلا يكون من السّاحر الواقف على مسافةٍ يتأمّل المشهدَ بإجلالٍ إلّا أن يستحضر قوىً خفيّةً عكسيّةً وإذا بالمدينة تعود إلى حجمها الطّبيعيّ.

كلّما حدث ذلك، سألَ السُّكّان بعضهم بعضاً حين يلتقون في الشّوارع ماذا تعني علاماتُ السّوط تلك على وجوههم،

بينما هم على يقينٍ من أنّ أحداً لم يجلدهم، ومن أنّهم ما كانوا ليقبَلوا بالجَلْدِ أبداً.



## 8

عُقِدَ العزمُ على خوض معركةٍ كبيرةٍ اليوم، وعلى الرَّغم من عدد القتلى المتنبَّأ به فإنَّ الأمرَ محسوم.

أبداً لـم يُبعِد الـيقينُ بوقوعِ قتلى شـبحَ حـربٍ، والأمـرُ أبعد مـا يكون عن ذلك في سنةِ ألفٍ و993، في زمنٍ ليست الوساوسُ فيه قيداً ولا حائلاً؛

فلا المضطهِـــدون يمتلكون مـــنها شـــيئاً، ولا المضطهَـــدون يُنصَحون بامتلاك شيءٍ منها.

ولكن في نهاية المعركة فحسب سيُعرَف السَّبب، ذلك أنَّ عدد القتلى، وخلافاً للمعتاد، سوف يُقسَّم بالتَّساوي بين المعسكَرَين،

لسببٍ بسيطٍ مفادُهُ أنَّ الكراهية قد دخلت أخيراً جسدَ المرأة.

مـــن الـــواضـــح أنَّ المضطهِـــدين، بعد مـــوتِ المضطهَـــدين، سـيغتصبونهنَّ وَفقًا لـما تـنصُّ عـليه قواعـدُ الحـرب الـعريقةُ في القِدَم.

كلُّ هـذا قد حـدث بالـفعل مـرَّاتٍ لا حـصر لـها، مـرَّاتٍ هـي مـن الكثرة بحيث لا ينبغي أن نسمِّي ذلك اغتصاباً بل استسلاماً؛

ولهـذا، ينتظر طـابورٌ طـويلٌ مـن الـنِّساء المسـتلقيات بلا مـبالاةٍ زائفةٍ أن يخترقهنَّ المضطهِدون.

لقد قمن من تلقاءِ أنفسهنَّ برفع ثيابهنَّ وقدَّمن للعيون ولضوء الشَّمس فروجهنَّ الرَّطبة،

وها هنَّ يتحمَّلن الاعتداءَ بصمتٍ، ويفتحن أذرعهنَّ بينما يجري الغضب عبر دمائهنَّ حتَّى يَبْلُغَ مركزَ الجسد.

ثمَّة لحـــظةٌ أخيرةٌ يكون فيها المضطهِــد مـــا يزال قادراً على الانسحاب،

ولكن سرعان ما يفوتُ الأوانُ على ذلك؛ وحين توشك الرِّعشةُ مثلَ قنبلةٍ على الانفجار

إذا بالأسنان التي ولَّدَتْها الكراهيةُ في الفروج المسعورة

تقطعُ كــلِّيّاً، وبحركـــةٍ ســلسلةٍ وباترةٍ، قضيبَ المضطهِــدين وتبصقه إلـــى الـــخارج بالاحـــتقار نفسِهِ الــذي كان يذبَّحُ به المضطهَدون.

امرأةٌ واحدةٌ فحسب، بينما تحتفل الأخريات بنصرهنَّ العادل، تستلُّ بلطفٍ العضوَ المبتورَ الذي كان لديه وقتٌ للقذف،

وإذْ تنهضُ، تعصرُ العضوَ بيديها، وتبتعدُ صوبَ السَّهل مُيَمِّمَةً شَطْرَ الجبال.

# 9

كلَّ ليلةٍ، ثلاثَ مرَّاتٍ، يُحصَى السُّكَّان الذين سُمح لهم بالعيش في المدينة.

لهذا السَّبب لم توصَد أبوابُ المنازل، وهذا من شأنه أن يحملَ مراقباً متعجِّلاً على الاعتقاد بأنَّ النَّاس هناك قد عادوا إلى براءة العصر الذَّهبيِّ؛

ولكنَّها نقطةٌ مختلَفٌ عليها.

الشَّيءُ المهمُّ هو أنَّ المنازل تبقى مفتوحةً دائماً حتَّى لا يضيِّع أولئك القائمون على الإحصاءِ الوقتَ،

خاصَّةً وأنَّ العدَّ يُجرَى ثلاث مرَّاتٍ كما سبق وذكرنا:

الأولى في منتصف اللَّيل، بعد ساعتين من بدء فريضةِ الذَّهاب إلى الفِراش؛

والثَّانية في الثَّالثة صباحاً؛ والثَّالثة عند الفجر حين لا تكون السَّماء قد اتَّضحَتْ بعد.

في الشِّتاء وفي الصَّيف، ينامُ النَّاسُ من دون دُثُرٍ، ولكنَّهم يرتدون من الملابس بقدر ما يستطيعون باستثناء ساقٍ واحدةٍ من الرُّكبة إلى الأسفل، والوجهِ بغيةَ التَّنفُّس؛

وإذا كان ممكناً، غطَّوا الرَّأس أيضاً وتركوا السَّاقَ وحدها مكشوفةً،

لأنَّ أولـئك الـقائمين على الإحـصاء يحتاجون إلـى لـمس جلد هؤلاء النَّائمين الذين نادراً ما ينامون.

يجري الـعَدُّ الأوَّل مِـن قِبَل الـفئران، والـثَّاني مِـن قِبَل الـثَّعابين، والثَّالث مِن قِبَل العناكب.

يفضِّلُ السُّكَّانُ الـثَّعابين والـفئران مـع أنَّ الـلَّمسات الـباردة والحـرشـفيَّة لـلثَّعابين مـروِّعـةٌ، ومـروِّعٌ كـذلـك الخـمشُ الـخفيفُ بأظافر الفئران؛

ولكنَّ الفزعَ الأكبرَ إنَّما مردُّهُ إلى العناكب؛

ومـع أنَّهم عـبقريُّون هـندسـيَّاً وحـسابيَّاً، إلَّا أنَّهم يأخذون بخُبثٍ وقتاً طويلاً في العَدِّ وهم يزحفون على الوجوه المذعورة، متنقِّلين على أرجلهم الطَّويلة والمرتعشة.

كلَّ ليلةٍ يُصابُ اثنان أو ثلاثةٌ من سكَّان المدينة بالجنون.

## 10

بعضُ البشر، مع أنَّهم غير ملائمين مورفولوجيّاً، ذهبوا ليعيشوا تحت الأرض؛

فاتَّبعوا طريقةَ المناجذ في حفر الأنفاق، لأنَّهم يعانون مثلها من قصورٍ جسديٍّ مُشابهٍ؛

وإذا كان صحيحاً أنَّهم مع مرور الوقت نَمَّوا أظفارهم، فازدادت طولاً ومتانةً،

فالحقيقةُ أنَّهم لم يتمكَّنوا أبداً من حفر أنفاقٍ عميقة؛

ولو فعلوا لكلَّفهم ذلك البقاءَ بمعزلٍ عن الشَّمس،

ولكنَّهم، في هذه المسألة، كانوا أكثر تعقُّلاً بكثيرٍ من المناجذ التي هي عمياء أو شبه عمياء، وأمَّا الإنسان فليس كذلك، وإنْ كان قد أحرز بعض التَّقدُّم في هذا الاتِّجاه؛

ولذلك كان من السَّهل اكتشاف الأنفاق التي حفرها هؤلاء البشر الذين هجروا العالم الخارجيَّ؛

ولأنَّهم كانوا مهتمِّين بفتح مَنْفَذٍ إلى الضَّوء، فقد شقَّقوا قشرة الأرض، فكانوا في ذلك أشبه بالنَّعام الذي يحسبُ أنَّه أجاد الاختباء؛

غير أنَّ المضطهِدين لا يتردَّدون أمامَ طرفَيِّ النَّفق مثلما قد يتردَّد المرءُ أمامَ أخدودٍ خطَّته في الرِّمال محاراتُ المياه العذبة الثُّنائيَّةُ المصراع، فهم يؤمنون بالقدَر،

لأنَّه حــيث تكون الأرض أكــثر طــراوةً، هــناك يتحرَّك الخبيءُ المحتجِب.

بحربةٍ مـغروزةٍ مـن الـرَّأس، أو بوتدٍ، يطعنون ظهرَ إنسيٍّ طـويلِ الأظافر ليِّنِ الشَّكيمة؛

وأفضلُ الفِخاخ، إذاً، نفقٌ محفورٌ قرب السَّطح.

لـيت البشـر الـذين اختاروا الـعيش تحت الأرض أدركـوا أنَّه كان عليهم أن يحفروا عميقاً وعميقاً قبل وصول الحربة والوتد، بحيث يموت المضطهِد مدفوناً في اللَّحظة الدَّقيقة التي سيقتلهم فيها، وبحيث تبدأ الخسائر بالتَّساوي

باسمِ العدالة البسيطة والمحتَّمة.

## 11

صُـودِرَتْ جميع مـوازين الحـرارة في الـمدينة، وحُـظر امـتلاكُـها تحت طائلة الموت.

لم يكن ثمَّة تفسيرٌ لذلك، لا في صفحة أخبار يوميَّات الاحتلال، ولا في صفحة الإعلانات؛

ولا حتَّى جرؤ أيُّ مـقدِّمِ برامـج إذاعـيَّةٍ أو تلفزيونيَّةٍ على إضـافة تعليقٍ على نصِّ الأمـر الـذي اسـتصدرَتْه السُّلطات الـمسؤولـة عـن البلاغات.

وبفضلِ اختفاء مـوازين الحـرارة اسـتطاع كـثيرٌ مـن الأطـفال أن يشعروا لأوَّل مرَّةٍ ببرودة أيدي الأب أو الأمِّ على الجبهة المحرورة.

بدا، بعد كلِّ شيءٍ، أنَّ شيئًا محموداً قد تحقَّق!

حتَّى حلَّ ذلك اليوم الـذي فهم فيه السُّكَّان ما كان يُصنَع بزئبق موازين الحرارة وبالزِّئبق المتبقِّي أينما وُجد.

اعـتقدَ النَّاسُ الذين كانـوا يعيشون على مشارف المدينة، وكانـوا يرون شروق الشَّمس–

اعـتقدوا، في مـرحلةٍ مـا، أنَّ الـعالـم كان على وشـك الانـتهاء، لأنَّه بجوار الـشَّمس الـبرتقالـيَّة الـقديمة بزغَـتْ كـرةٌ باردةٌ وسـوداء ذات انعكاساتٍ رماديَّةٍ؛

وحـدهـم هـؤلاء شهـدوا أوَّل ظهورٍ لـلعين الـعظيمة الـموكَّـلة بمراقبة المدينة؛

وحدهم هؤلاء رأوها في عظمتها الأصليَّة.

حين كانت الشَّمس الحقيقيَّة تبزغ قليلًا عندَ الأفق، انشطرَتْ كرة الزِّئبق إلى كرتين، إلى أربع، إلى ثماني، إلى ستَّ عشرة، إلى اثنتين وثلاثين، إلى مئات الكُرات التي انتشرت في كلِّ مكانٍ؛

تحرَّكَتْ بصمتٍ في الهواء، وظلَّت تنشطر حتَّى بلغ عددُ الكُرات عددَ سكَّان المدينة.

لقد أُنشِئَتْ عينُ الرِّقابة الفرديَّة، أو العين التي لا تنام!

ومع ذلك، لاحظَتِ الأمَّهات أنَّ شيئاً كالحجاب كان ينسدل على كرة الزِّئبق كلَّما وضعنَ أيديهنَّ على جِباه الأطفال المحمومين.

في هذه الحالات، كان الحاسوبُ المركزيُّ يتلقَّى بياناتٍ غير عاديَّةٍ تُزيِّف المعلومات العامَّة،

ولسببٍ كهذا، مع أنَّ الأمر يبدو خارج حدود التَّصوُّر، اختفَتْ مؤخَّراً دون أن تترك أيَّ أثرٍ كتيبةٌ كاملةٌ من جيش الاحتلال.

كانــت إحــدى نــتائج الكارثة أنَّه بين لــيلةٍ وضُــحاهــا توقَّفت الحيوانات الأليفة عن كونها أليفةً؛

وأُولـى الـضَّحايا التي وصلَتْ إلينا أخبارُها كانت زوجة الحاكم الذي اختاره المحتلُّ؛

فالقردُ المدرَّب الذي اعتاد أن يسلِّيها في ساعات الضَّجر عَمَدَ إلــيها فصلبَها عــند بوَّابة الحــديقة بينما خرج الــدَّجاج مــن خُمِّهِ لينتزع بالنَّقر أظافر قدميها؛

وقِطاطٌ مخصيَّةٌ نقيَّةُ السُّلالة تذكَّرَتْ ما عانته فخمَّشَتْ عدداً كبيراً من النِّسوة المسنَّات البريئات؛

والعديدُ من الأطفال – لسوء حظِّهم – أصبحوا عُمْياً بسبب المناقير الحادَّة للطُّيور التي مـن الأغصان ومـن التِّلال انقضَّتْ عليهم كالحجارة.

هكذا، بغياب الحيوانات الألـيفة كـرَّس البشـر أنفسهم بحماسٍ لزراعة الأزهار،

هـذه التي ينبغي ألَّا نوجسَ مـنها شـرَّاً إذا نحن لـم نعطِ أهـمِّيَّةً مُغالىً فيها لآخر الأخبار المتواترة عن وردةٍ لاحمة.



## 13

تمَّ إصلاحُ نظام السُّجون بالكامل مِن قِبَل المحتلِّ، بما في ذلك المباني نفسها،

فأُزيلَتِ الأبراج المحصَّنة، والسُّجون تحت الأرضيَّة، والزَّنازين المظلمة، والمشابك والجدران العالية، والأسلاك الشَّائكة؛

وبدلاً من السُّجون القديمة شُيِّدَتْ مبانٍ من ستَّة طوابق، وكلُّها من الزُّجاج الشَّفَّاف.

العناصر الوحيدة غير الشَّفَّافة كانت مَرتبات القشِّ وأقفال الأبواب.

ضمَّ كلُّ سجنٍ مئات الزَّنازين السُّداسيَّة الشَّكل كخلايا النَّحل؛

وكلُّ ما كان يفعله سجينٌ من السُّجناء كان عليه أن يفعله على مرأىً من السُّجناء الآخرين ومن الحرَّاس ومن المدينة برمَّتها التي لم يكن فيها أيُّ عروضٍ عامَّةٍ أخرى.

لم يكن أحدٌ مهتمّاً بالاحتلال الأكبر، احتلال الفِكر،

بل وفقاً للأذواق لم يكن هناك نقصٌ في المتفرِّجين على أولئك الذين يأكلون ويتبرَّزون ويستمنون مع شديد الاعتذار للعيون الحسَّاسة،

أو على أولئك الذين يشاركون في عمليَّات الاستجواب والتَّعذيب التي تحدث في وَضَح النَّهار

كـدلـيلٍ على أنَّ نظام الـسُّجون الجـديد يعترف بحرِّيَّة الـرَّقابة، ويقدِّم نفسه لشهود العيان على الملأ.

لا تصبحُ الجـدران غير شـفَّافةٍ إلَّا حـين ينام الـسُّجناء، ولا يتبقَّى هناك ما يستحقُّ المشاهدة.



## 14

في الجهات الأربع الرَّئيسة، يدافع الحرَّاس عن النَّوم المتعَب للقبيلة أو لقطيعٍ من النَّاس يجوبون الحقول؛

رجُلٌ في الشَّمال وامرأةٌ في الجنوب، ورجُلٌ آخر في الشَّرق وفي الغرب امرأةٌ أخرى.

يجلسون متقاطعِي السِّيقان، متيقِّظِين لكلِّ ظلٍّ، ويصرخون في حالة الخطر،

ولكن لـمَّا كان المضطهِدون لا يحبُّون الهجوم في الظَّلام، كان اللَّيلُ يمرُّ في أغلب الأحيان هادئاً وبارداً.

عندَ الفجر تستيقظ القبيلة، وتنقسم إلى أربع مجموعاتٍ وفقًا للجهات الرَّئيسة، وتذهب لتشكر الحرَّاس لأنَّهم حفظوا لهم حياتهم؛

ثمَّ يتَّحد الجنسان، رجل الشَّمال مع امرأة الجنوب، ورجل الشَّرق مع امرأة الغرب، لأنَّه هكذا قُضِيَ أن يكون كلَّ صباح؛

وبينما الجِماعُ مستمرٌّ، يغنُّون في حلقةٍ الأغنيَّةَ السَّعيدةَ الوحيدةَ التي لم ينسوها.

تشرق الشَّمس على الأجساد الأربعة العارية التي هي الأملُ اللَّاواعي للقبيلة،

وفي الوقتِ نفسِه توقَدُ النَّارُ الأولى، ويرتفع الدُّخان الأزرق للخشب نحو السَّماء.



# 15

ولكن يجب ألَّا ننسى البحر الذي هو بداية ونهاية كلِّ شيء!

من المؤكَّد أنَّه في أيَّام سنةِ ألفٍ و993 لن يكون هناك سوى قلَّةٍ من النَّاس قادرةٍ على تخيُّل الأيَّام الأولى للعالم،

عندما لم يكن هناك أيُّ حيوانٍ يجوبُ الأرضَ، أو يحلِّق فوقها؛

وعندما لا شيء ممَّا يستحقُّ اسمَ نباتٍ كان قد شقَّ التُّربة الهشَّة بعد؛

وعندما كان المرجلُ الهائلُ للبحر يُعِدُّ خيمياءَ حجر الفيلسوف الذي حوَّل كلَّ شيءٍ إلى حياةٍ، وبعضَ الأشياء إلى ذهب.

وفي أيَّام سنةِ ألفٍ و993 أيضاً، سيبدو المستقبلُ مستحيلاً فيما وراءَ المستقبل،

عندما سيُغطِّي البحرُ القارَّات المنهوكة القوى، وتعود الأرض لتتلألأ مرَّةً أخرى في الفضاء مثل مرآةٍ مغشَّاةٍ بالجليد؛

ومرَّةً أخرى لا يعود ثمَّة نباتٌ باستثناء الأعشاب البحريَّة، ولا حيوانٌ باستثناء الأسماك الكبيرة المشرفة على الموت.

اليومَ لا يسعى البشرُ إلى البحر إلَّا للتَّأوُّه والتَّشكِّي أمام صوت الأمواج العظيم،

وراكعين صفَّاً واحداً بأذرعٍ مفتوحةٍ، ووجوهٍ مجلودةٍ بالرِّيح والزَّبد،

يبثُّونه، وفي آذانهم وقرٌ من هديره، بؤسَهم البالغَ الذي يشتِّتهم الآن في الأرض؛

وحـين يصمتون أخيراً مـذهـولـين مـن الأهـوال التي يمكنهم تحمُّلها،

يهدأ البحـرُ فجأةً ومـن هـذا الـجانب ومـن ذاك يُسمَع هـمسٌ بطيءٌ يُعيد النَّظر في الحقائق التي

لا تُقصي في الـحقيقة مـدّاً جديداً أو جرأةً جديدةً تليق بالـوقتِ المُنفَقِ منذ أوَّل موتٍ،

والـذي لـولاه مـا كان مـن الـممكن أن يتَّحد البشـر مـن جديدٍ ويصعدوا الجُرفَ نحو الأرض المحتلَّة.

## 16

كان من الممكن أن يحدث ذلك في أيِّ وقتٍ من النَّهار،

حين كانت القبيلة تتحرَّكُ تحت الشَّمس في السَّهلِ المتحجِّرِ والعديمِ العشب،

أو حين، في ظلِّ صخرةٍ عاليةٍ، آمنَ أبناؤها بنهاية شرور العالم لمجرَّد أنَّ برودةً عابرةً أبقتهم بمنأىً عنها،

أو حين ولَّدَ الشَّفقُ البائسُ لديهم رغبةً في الذَّوبان ببطءٍ في الفضاء؛

ولكنَّه حدث في اللَّيل، في ظلمة الكهف الحزينة، حيث وحدها العين الحمراء للجمر كانت تَأْلَم لحال البشر،

وحيث كانت رائحة الأجساد مُهانةً بالغازات والعرق والفضلات والحيوانات المنويَّة،

وحيث كانت سُهاداتٌ لا نهاية لها تنتهي بالانتحار،

أنِ اكتشف رجلٌ فجأةً أنَّه لم يعد يعرف القراءة؛

عبثاً حاولَ استذكارَ حروف الأبجديَّة، وعبثاً حاول رسمها في ذاكرته؛

كانت خدوشاً عمياءَ في الظَّلام، أو رسوماً من المرِّيخ أو من عطارد أو من بلوتو، أو ربَّما طريقةَ كتابةٍ من نظامِ كوكبةِ الجبَّار،

شـيئاً غير بشريٍّ ووِدِّيٍّ، شـيئاً لـيس لـه الـطَّعم الـيومـيُّ لـلخبز والملح؛

وحـين وُلِدَتِ الـشَّمس، وخرجَـتِ الـقبيلةُ إلـى الـهواء الـطَّلق في الأرض المستكينة،

اقتعدَ الرَّجلُ الأرضَ محنيَّاً مثلَ جنينٍ،

وقطعَ على نفسه عهـداً بأن يموتَ دون مـقاومـةٍ إنْ لـم يكتشف أبناءُ جلدته، أولئك الذين ربَّما كانوا ما يزالـون يعرفون القراءة، أمرَ الجُذام الذي حلَّ به آناءَ اللَّيل.

## 17

السِّلاحُ الأفظعُ في حرب الازدراء كان الفيل؛

لأنَّ محتلِّي المدينة في ذلك الوقت كرهوا أن يطاردوا في الحقول جحافلَ مذعورةً من البشر كانوا يجرجرون أنفسَهم بين سماءٍ وسماء،

فعُمِدَ إلى الحيوانات في حديقة الحيوان فشُلَّتْ كلُّها بمخاليطَ كيميائيَّةٍ لم يسبق لها مثيل،

وبينما هي ما تزال حيَّةً ومفتوحةً على طاولات تشريحٍ كبيرةٍ، ومُفرَغةً من الأحشاء ومن الدَّم الذي راح يتدفَّق في قنواتٍ عميقةٍ في باطن الأرض لا يخرج منها إلَّا إلى حمَّاماتِ أفضل البغايا،

وقد صُيِّرَتْ جلداً وعضلاتٍ وهياكلَ عظميَّةً، زُوِّدَتِ الحيوانات بآليَّاتٍ ميكانيكيَّةٍ داخليَّةٍ قويَّةٍ وُصِلَتْ بالعظام بواسطة داراتٍ إلكترونيَّةٍ لا يمكن أن تخطئ؛

ولمَّا كان كلُّ ذلك بالطُّول الموجيِّ للحاسوب المركزيِّ، ابتُكِرَ برنامجُ الكراهية وذاكرةُ الازدراء؛

وحينئذٍ فُتحت أبواب المدينة، وخرجت الحيواناتُ لتدمير البشر.

لم تكن الحيواناتُ في حاجةٍ إلى النَّوم أو الأكل، أمَّا البشرُ فبلى؛

لم تكن في حاجةٍ إلى الرَّاحة، أمَّا الإنسان فغيرَ الخوف والمشقَّة لم يعرف.

سُـمِّيَتْ هـذه الحـرب بحرب الازدراء، لأنَّ الـدَّمَ فيها لـم يكن يحاربُ الدَّمَ؛

وقد سبق وقلنا إنَّ الفيل كان أفظع آلةٍ في تلك الحرب؛

ومـا يُدرينا مـا السَّـبب! ربَّما لأنَّه رُوِّضَ مـرَّاتٍ كـثيرةً، وتَعرَّضَ للسُّخـرية في السِّـيرك حـين كان يتوازن بحجمه الـكبير على كـرةٍ سخيفةٍ، أو يقف على قائمتيه الخلفيَّتين ليحيِّي الجمهور؛

وفي الـوقت نفسه، يصرُّ أفضلُ حـكماءِ الـمحتلِّين قاطـبةً على الجزمِ بأنَّ أفعاله ستجعل الحاسوبَ يضحك، وهذه الفرضيَّة لن تُدهش أيَّ شخصٍ إذا ما أخذنا بالاعتبار الوقائع المرويَّة.

# 18

قريباً جدّاً مـن المكان الـمختار لـمضربِ الـخيامِ الجـديد، شـقَّ الهواءَ العويلُ اليائسُ للنِّساء الأربع حاملاتِ النَّار؛

لا أحد ماتَ فجأةً، ولا أحد اختُطِفَ مِن قِبَل النُّسور الميكانيكيَّة التي كان المحتلُّون يطلقونها على الآبقين؛

ولـكن مـع خبوِّ الـنَّار، كانـت الـمصيبة الأكـثر هـولاً بين الـمصائب قد وقعَتْ، ذلـك أنَّ أوانَ الهـلعِ الـذي لا بُرْءَ مـنه، أوانَ ظلامِ الـعزلـةِ القارسِ، كان قد آن؛

ولا ريب أنَّ نصف الـقبيلة كان سينتهي به الأمـرُ إلـى الاسـتسلام في أثـناء مـسعاه لاختطاف شـعلةٍ جديدةٍ مـن الـمدن الـمحتلَّة، لـو كانت لديه الشَّجاعة للإقدام على مثل هذه المجازفة الكبيرة.

تجمَّعوا حـول الـرَّمـاد، وفي ذلـك المكان خُلِعَ الـزَّعـيمُ والـنِّساءُ الأربعُ المرجوماتُ ولكن ليس حتَّى الموت،

فالموتُ عند المضطهَدين كان أمراً لا ريبَ فيه، ولذلك احترموا الحياةَ، وربَّما لهذا السَّبب كانوا يموتون لأهون الأسباب.

هكذا بدأتْ تلك اللَّيلةُ المظلمةُ الأولى مع تجمُّع العشيرة كلِّها في بقعةٍ من الظِّلِّ تحت وهج النُّجوم الخافت والبعيد؛

وكـما كانـوا يفعلون دائماً في نهاية كـلِّ يومٍ، أحـصوا أنفسهم، واكتشفوا أنَّ أحدهم مفقودٌ؛

وحين راحوا يشتكون مراراً وتكراراً لهذا الأمر الذي لم يكن شيئاً أمام بؤسهم الكبير،

قال طـفلٌ إنَّه رأى رجلاً مـن الـقبيلة يرحـل باتِّجاه الـغرب، وإنَّ ذلك قد حدث بعد خبوِّ النَّار.

كانـت اللَّيلة أشبه بكومةٍ مـن الـوحـل، لأنَّ النُّجوم كانـت بعيدةً وباردة؛

ثمَّ وُلِدَ النَّهار، وانقضى دون أن يتحرَّك الجمعُ من هناك، وأكلوا وناموا، وبعضُهم مارس الجنس حتَّى لا يخاف؛

وفي الــلَّيلة الأخرى نهضوا عــن الأرض، فجاءَتِ الــذِّئاب الميكانيكيَّة، وسحبَتْ أقوى عشرة رجال،

ورحـلَتْ بمجرَّد أن بدأت الـشَّمس بالـبزوغ، ومـن بعيدٍ راحـت تعوي بحناجرهـا الحـديديَّة، بينما كانـت الـدِّمـاء تقطرُ مـن جروح الموتى؛

ثمَّ على الـقرص الأحـمر رأى الـنِّساء والـرِّجال الـباقون على قيد الـحياة بقعةً سـوداءَ آخذةً في الـتَّوسُّـع، فظنُّوا أنَّه حتَّى الـشَّمس كانت تنطفئ،

حتَّى تبيَّنوا في الرَّجل الرَّاكض نحوهم الرَّفيقَ الذي غادرَهم قبل ليلتين، والذي أصبحَتْ لديه الآنَ نقطةٌ مضيئةٌ،

لهبٌ يخرجُ من ذراعـه المرفوعـة، وكانـت يدُه هي التي تـتوهَّجُ بالضِّياء المسروق من الشَّمس.

# 19

حين أصبح سكَّان المدينة معتادين على تسلُّط المحتلِّ،

قرَّرَ الحاسوبُ ترقيم الجميع على الجبهة، على غرار التَّرقيم على الذِّراع قبل خمسين عاماً في أوشفيتز وفي أماكن أخرى.

كانت العمليَّة غير مؤلمةٍ؛ ولهذا لم تكن هناك مقاومةٌ ولا احتجاجات.

قاموسُ المفرداتِ نفسُه كان قد خضع لتحوُّلاتٍ، وجميعُ الكلمات التي تعبِّر عن الغضب والسُّخط كانت قد نُسِيَتْ؛

وهكذا وجد سكَّان المدينة أنفسهم مرقَّمين من واحدٍ إلى سبعةٍ وخمسين ألفاً و229، لأنَّ المدينة كانت صغيرةً، وقد اختاروها للتَّجربة من بين جميع المدن المحتلَّة.

بعد شهرين، سجَّل الحاسوبُ قِيَماً سلوكيَّةً ومزاجيَّةً مختلفةً تبعاً للعدد المخصَّص لكلِّ ساكنٍ؛

فبين الواحد والألف، كانت هناك حالةٌ من الرِّضا الكامل عن النَّفس وإنْ كانت مقسَّمةً إلى ألف شذرةٍ صغيرةٍ متطابقة.

لم يعترف أحدٌ بالسُّلطة لمن دُمِغَ برقمٍ أكبر من رقمه، وهذا يفسِّر كيف أنَّ حاملَ الرَّقم سبعةٍ وخمسين ألفًا و229 كان يأكل مع الكلاب، وكان مضطرَّاً إلى الاستمناء، لأنَّه لم تكن هناك امرأةٌ ترغب في أن تكون معه.

عدَّ السُّكَّانُ من واحدٍ إلى تسعةٍ أنفسَهم زعماءَ المدينة، وتزيَّوا بزيِّ المحتلِّ؛

ولكنَّ أوَّلهم صنعَ دائرةً ذهبيَّةً ووضعها على رأسه، كعلامةٍ على القوَّة والسُّلطة، واليوم تكفي هذه العلامة لجعل جميع الرُّؤوس تنحني له بدءاً من الرَّقم اثنين؛

ولكنَّ الحاسوب وحده يعلم أنَّ هذه الأرقام مؤقَّتة، وأنَّها في غضون أربعٍ وعشرين ساعةً سوف تُمحَى كلُّها، لتظهر مرَّةً أخرى بترتيبٍ عكسيٍّ؛

حيلةٌ لا تقلُّ فاعليةً عن حيلةِ الحيوانات الميكانيكيَّة في مواصلة إبادة السُّكَّان المستعبَدين؛

ذلك أنَّ كلَّ إهانةٍ ستتضاعف مِائة مرَّةٍ حتَّى الموت،

فيما يتشاغلُ المحتلُّون عنهم بالاستعراضات التي ما تزال تخدم أغراضَهم.

# 20

جميع المصائب كانت قد وقعَتْ بالفعل على القبيلة لدرجة أنَّهم كانوا يتحدَّثون بأملٍ عن الموت؛

عمَّا قليلٍ سيكون الانتحار الجماعيُّ مطروحاً للتَّصويت وموافَقاً عليه؛

وهكذا، على امتداد السَّهل اللَّامتناهي، كانت الأصواتُ تنطفئ ببطءٍ، كما لو كانت المحطَّةُ التَّاليةُ هي الأخيرة، وكان النَّاس يعلمون ذلك؛

وبحلول منتصفِ ما بعد الظُّهر غطَّت الغيومُ السَّماءَ، وغطَّى مطرٌ بطيءٌ الأرضَ الموحلةَ، وأولئك الأشدُّ يأساً بين البشر

غرسوا في الأرض أوتاداً، وكانت تلك الأوتادُ أعمدةَ منازلهم المتنقِّلة بما فوقها من خِرَقٍ بقيَتْ من الماضي وَقْتَ كان عددٌ قليلٌ من النَّاس يرتضون لأنفسهم مأوىً كهذا المأوى؛

هوَ ذا القطيعُ البائسُ، أو السُّرْبةُ، أو الصُّوارُ متروكٌ للمراعي الطَّبيعيَّة والتِّلال الصَّخريَّة، واليومَ للبرد الإسفنجيِّ لمطرٍ يحتُّ عظامَ الجمجمة!

وحين شارفَ اللَّيلُ الحلولَ، خرجَ الرَّجلُ والمرأةُ اللَّذان اختار أحدُهما الآخر باتِّجاه غابةٍ أغلقَتْ دونهما السَّماءَ؛

ذلك أنَّ البؤسَ كان في أَوْجِه، وربَّما كان الموتُ سيأتي بسرعةٍ أكبر لو أنَّ الضحايا ظهروا جَهراً؛

ولكنَّ ذلك لم يحدُث، وتحت الأشجار ضاعفَتِ الظُّلمةُ المهيبةُ الخوفَ، ولكن ليس كثيراً.

آنذاك، تعانق الرَّجل والمرأة ودون أن ينبسا بكلمةٍ تضرَّعا؛

وإذا بالشَّجرة التي استندا إليها خَدِرَين من شدَّة البرد تنفتحُ لسببٍ لم يكن معروفاً على الإطلاق، وتحتضنهما داخلَها موحِّدةً النُّسغَ والدَّم.

انتهَتْ كلُّ أفانين العذاب في تلك اللَّحظة، واسَّاقطَ المطرُ على الأوراق والجذوع مغذِّياً الأرضَ، ورويداً رويداً تحرَّكَتِ الجذور.

هكذا مرَّ اللَّيلُ فوق هذا السَّلام الذي لم يعرف الكوابيس؛

ولكن حين وُلِدَتِ الشَّمس، سُمِعَ من المكان الذي كانت فيه القبيلةُ جلجلةٌ هائلةٌ وصريفُ صيحاتٍ وضَرْبُ أجنحةٍ وعواءاتٌ معدنيَّة؛

وعلِمَتِ المرأة والرَّجل المتضامَّان داخلَ الشَّجرة أنَّ أبناءَ جلدتهما قد تعرَّضوا مرَّةً أخرى لهجوم المحتلِّين والوحوش.

في عام ألفين و93 سوف يُحكَى أنَّه قبل عامٍ شوهِدَتْ شجرةٌ تخرج من الغابة متحرِّكةً على جذورها، وتصنع حبائلَ ورِماحاً من فروعها، ونِصالاً من أوراقها الحادَّة؛

وسـوف يُقال أيضاً إنَّه أينما توجَّهَتِ الـقبيلةُ توجَّهَتِ الشَّجـرةُ ماشيةً على جذورها،

وإنَّه تحت هـذه الشَّجـرة لـيلاً، أو في شـمس الـهاجرة، كان يأوي الـرِّجالُ الآخرون والنِّساءُ الأُخريات الـذين كانـوا في الأيَّام الأولـى ما يزالـون يتذكَّـرون عُشَـراءَهـم الـذين اختفوا تلك الـلَّيلةَ التي كان الموت فيها هو القدَر المحتوم للقبيلة؛

وكلُّ هذا سوف يُروَى في أسعدِ أوقاتِ عامِ ألفين و93.





## 21

لا عـجبَ أنَّ هـناك حـاجةً إلـى تعلُّم الـلُّغة الـمتقشِّفة لـلجوع والبرد مرَّةً أخرى؛

وكذلك كلمات الصَّباح واللَّيل، وتلك التي تشير في السَّماء إلى مسار النُّجوم، أو إلى صورة جبلٍ فحسب؛

ذلـك أنَّنا عـرفنا الأحـاسـيس، ولـم نعرف الـكلمات التي جعلتها ذاتَ نفعٍ للحياة المشتركة أو على الأقلِّ محتمَلَة.

فحين كانت امرأةٌ تجتذبُ إليها آناءَ اللَّيل رجُلاً، وكلاهما لا يهتمُّ، لدقائقَ صامتةٍ، إلَّا بلذَّته الخاصَّة،

فإنَّه لا الـــرَّجل ولا الـــمرأة، لا الـــرِّجال الآخرون ولا الـــنِّساء الأخريات، المحدِّقون بنظراتٍ فارغةٍ،

كانـوا لـيسمُّوا حُـبَّاً، أو شهوةً، أو رغبةً في الانـتحار، أو مجرَّدَ فعلٍ آليٍّ ما يفيضُ عـن الـمرآة الـمضاعَـفة من جرَّاءِ الانـتصاب الـبطيء للعضو الذَّكريِّ نحو الفرج الرَّطب؛

وإذا كان الـرَّجل والـمرأة يفعلان شـيئاً مـا، فهو بالـضَّبط هـذا الانـتصابُ والـبللُ الـنَّابعان لـيس مـن إرادةٍ، بل مـن غريزةٍ، أو مـن نزعةِ المحاكاة حتَّى مع العلم مسبَّقاً كيف سينتهي كلُّ شيء.

لهـذا السَّـبب فحسب كان الـكهف يمتلئ أحـياناً بالتُّنهُّـدات، وكانت الوجوه تتقلَّب على الأرض، بينما الأطفال شاخصون بأبصارٍ يَقظى يحاكون الإيماءات الغائصة أكثر فأكثر في الحزن؛

لـم يعرف أحـدٌ كـيف يقول ذلـك، ولـكنَّه كان وقتَ حـزنٍ، وقتَ أسوأ الأحزان، كحـزن تلك الحافَّة القاسية والحادَّة التي توحِّد وجوهَ الحياة والموت التي لا بدَّ من أن تلتقي في مكانٍ ما؛

ولكن ربَّما كانت النَّظرة المختلفة التي تبادلَها الآنَ رجلٌ وامرأةٌ على الطَّريق الضَّيِّقة،

ثمَّ بعد النَّظرةِ أداما النَّظر، بينما الدَّم يتدفَّق في أنفاق الشَّرايين الضَّيِّقة،

مـثلما يحدث لمن هـما على يقينٍ مـن أنَّ مـن المـمكن أن يلتقيا مرَّةً أخرى؛

ربَّما كان هـذا الـصَّمت هـو الجهـدُ الـذي يفتح قفص الـرِّئـتين، يفتحُه نثريَّاً، وبلا شِعرٍ يفتحُه،

لتبدأ من جديدٍ الولادةُ المؤلمةُ للكلمة الأولى.

## 22

ولأنَّ الآلـهة الـقديمة قد مـاتت لأنَّها عـديمة الجـدوى، فقد اكتشف البشرُ آلهةً أخرى كانت موجودةً منذ الأزل ولكن متواريةً لكونها غيرَ ضروريَّة.

أوَّلها كان الجبل؛ لأنَّه هو الذي كان، بأعلى قمَّةٍ من قممه، يسندُ ثِقَلَ السَّماء،

تلك السَّماء التي عاشت فيها الآلهةُ القديمةُ في السَّابق متوارِثةً أباً عن جدٍّ هذا الاحتقار للبشر، ومستخدِمةً هذا الاحتقارَ نفسَه لإنقاذ نفسها من إنسانيَّتهم.

الإله الثَّاني كان الشَّمسَ؛ لأنَّه هو الذي علَّمهم إعادةَ اكتشاف العَجَلة، مع أنَّ هناك الكثير من القبائل التي عَبَدَتِ القمرَ للسَّبب نفسه؛

كانت هذه القبائل في ليالي الهلال المتزايد والهلال المتناقص تخفضُ الطَّرفَ،

مُظهِرةً بذلك أنَّ لكلِّ قبيلةٍ على الدَّوام إلهاً تفضِّله على الآلهة الأخرى.

ولكنَّ علم الأساطير الحديث يقف هنا، لأنَّه في يومٍ من الأيَّام كان هناك رجلٌ تسلَّق قمَّة الجبل ثمَّ شوهِدَ يرفع السَّماء بقوَّته الخاصَّة؛

وأخذ رجلٌ آخرُ العَجَلتين اللَّتين كانتا الشَّمسَ والقمرَ، ورماهما بعيداً حيث لا يلمعان.

في النِّهاية بقي إلهٌ واحدٌ هو النَّهر؛ لأنَّ البشر كانوا يغمسون فيه أيديهم ووجوههم، والنُّجوم تَعْلَق بأعينهم حين ينهضون

بينما تحمل مياهُه بدورِها نحوَ السَّماء، ونحوَ الشَّمس إن وُجِدَتْ، الملحَ العَكِرَ لدمعهم وعَرَقهم؛

والنَّباتات الخضراء التي تعيش في الماء ترتعش تحت الرِّيح التي تجلب تلك الرَّائحة، رائحةَ الإنسان التي لم تَعْتَدْها الأرضُ بعد.

تُغَذَّى الحواسيبُ المستخدَمةُ مِن قِبَل المحتلِّ على اللَّحم البشريِّ؛ ذلك أنَّ الإلكترونيَّات لا يمكن أن تكفي لكلِّ شيءٍ،

وكذلك لأنَّها طريقةٌ لإدخال طقسٍ قربانيٍّ قد يمنحُ بمرور الوقت المحتلَّ ديانةً نافعةً تتبلور باستجابة الضَّحايا طوعيَّاً له.

ومع ذلك، معلومٌ جيِّداً كم من المهمِّ ألَّا تدخلَ جزيئاتُ الدِّماغ البشريِّ حجرةَ تغذية الحواسيب،

وإلَّا حدثَتْ اضطراباتٌ في النِّظام المعقَّد الذي بواسطته يُدَمَّر البشرُ داخل المدينة وخارجها، وهو نظامٌ يستخدم وسائل فوريَّةً وفظَّةً، ولكنَّه يستخدم أيضاً وسائل مبتكَرةً وأكثر حداثة.

لتدارُكِ هذا الخطر المحتمَل، رقَّى المحتلُّ أفضلَ علماء التَّشريح لديه إلى مفتِّشين موكَّلين بالرَّقابة على أغذية الحواسيب،

مع الالتزام بإجراء فحصٍ دقيقٍ للَّحم البشريِّ الذي يُلقَى ثلاث مرَّاتٍ في اليوم داخل حجرة التَّغذية المعقَّمة والملبَّسة بأسنانٍ من الحديد المفولَذ؛

وبفضل هذه التَّدابير، أدَّتْ الإدارة العامة مهامَّها بانسجامٍ، وكانت النَّتائج التي تمَّ الحصول عليها منسجمةً مع تلك المتوقَّعة بتقريبٍ قَدْرُه جزآن عُشريَّان من الألف.

ما يزال من الممكن القول إنَّ اللَّحم البشريَّ هو الأفضل لتغذية سلطةِ أيِّ محتلٍّ إذا ما استبعدنا الدِّماغ.

ولكن اليوم، ودون أن يلاحظ المفتِّشُ القائمُ على رأس عمله ذلك، وُضِعَتْ في حجرة التَّغذية يدٌ مقطوعةٌ تُحكِمُ قبضتها على قطعة عجينٍ رماديَّةٍ تحتوي على مئات الملايين من العصبونات؛

وإنْ كان صحيحاً أنَّه لم تَرِد حتَّى الآن أخبارٌ غير عاديَّةٍ من الخارج،

فإنَّه لأوَّل مرَّةٍ في المدينة يشنق أحدُ الجنود الذين يحتلُّونها نفسَه تاركاً رسالةً لم يستطع القائد قراءتها لأنَّ الجنديَّ الآخر الذي حملَها إليه أُسِرَ وقُتِلَ في أوَّل كمينٍ؛

وفي الوقت نفسه، كان الحاسوب يعدِّل جميع البرامج داخل نفسِه، ويبدِّل كلَّ ذكرياته مُعِدَّاً العدَّةَ سرَّاً للهجوم.

في هذه اللَّحظة بالتَّحديد، يدوِّنُ ضابط الأمن الوقتَ الذي تمرُّ فيه الدَّوريَّة، ولا يخطُّ في السِّجلِّ أيَّ شيءٍ يستوجبُ الإبلاغَ عنه.

## 24

لــيس ثَمَّ ســلاحٌ إلَّا الأوتاد الـغليظة المســلوخة بصعوبةٍ مــن الأغصان السُّفليَّة للأشجار، والحجارة المتجمِّعة في مجاري الأنهار؛
لـيس ثَمَّ جُنَّةٌ سـوى جُنَّةِ الـلَّيل وظلال الـمسالـك التي تسلَّلَت فيها القبيلةُ كثعبانٍ طويلٍ يزحف.

هناك، لم يكن لدى الذِّئاب الميكانيكيَّة حيِّزٌ للهجوم، وكان من الممكن أن نرى بين جدارين صخريَّين عاليَين ورنَّانَين طائرةً ورقيَّةً حقيقيَّةً تقاتلُ نسراً ميكانيكيّاً وتنتصر عليه؛
ذلك أنَّ النَّسر كان مبرمَجًا على مهاجمة البشر فحسب، كشأن الفِيَلة التي كانت تهتاج غضباً في حُلُوق المسالك الضَّيِّقة عاجزةً عن دخولها؛
وكان هذا يحدُث طالما بقيَ الحاسوبُ على اتِّصالٍ بالحيوانات الميكانيكيَّة،
تلك التي تصبح عـديمة الـفائدة حـين ينقطع الاتِّصال، فما كان يطير مـنها يهوي فُتاتاً مـنثوراً، ومـا كان يسير تُشَلُّ حـركـتُه وينتحي جانباً.

سبع ليالٍ استمرَّ الزَّحفُ في متاهات الجبال، وسبعة نهاراتٍ نامَـتِ الـقبيلةُ ونامَـتِ الـقبائلُ الأخرى التي تجمَّعَتْ في الـكهوف حـيث كان أفرادُهـا يكتشفون أحـياناً رسـومـاتٍ تصوِّر رجالاً يقاتلون حيواناتٍ أو رجالاً آخرين.

في فجر اليوم الثَّامن خرجَتِ القبائلُ إلى حقلٍ مفتوحٍ، ورأتْ أسداً يقف على قوائمه بلا حراكٍ؛

وكان غرابان، وهما يرفرفان بجناحَين جافَّين، يمزِّقان قِطَعاً من جلده الميِّت، كاشفَين عن آليَّة البطن والأعضاء وعن عقدةٍ من الخيوط الدَّاكنة كأنَّها قلبٌ عَفِن؛

ثمَّ عادَتِ القبائلُ أدراجَها إلى المسالك، وهناك انتظرَتِ اللَّيل، وعلى جدران كهفٍ رَسَم بعضُهم الأسدَ والغُرابَين المرفرفَين، وفي الخلفيَّة مدينةً مسلَّحةً؛

ثمَّ رسموا أنفسهم مؤازَرِين بأوتادٍ غِلاظٍ، وفي شِقِّ الصَّدر المحدَّدِ بخطَّين جانبيَّين أشاروا بعلامةٍ إلى الموضع الذي يجب أن يشغله قلبٌ حيٌّ.

# 25

مع أنَّ زمناً طويلاً قد مضى لم يولَد فيه طفلٌ، لم تَضِعْ كُلِّيَّةً ذكرى ذلك العالَم الخصيب.

وحدث أنَّ بعض القبائل الأكثر استقراراً أعادَت اكتشافَ بعض الممارسات السِّحريَّة التي انحدرَتْ من أزمنةٍ غابرةٍ جدَّاً؛

ولهذا السَّبب كانت تلك القبائل تحملُ النِّساءَ الحوائضَ على الرَّكض في الحقول المزروعة لكي يسقي الدَّمُ الهامي على طولِ سيقانهنَّ التُّربةَ، وكان دمَ حياةٍ لا دمَ موتٍ؛

عارياتٍ كنَّ يركضن، تاركاتٍ وراءهنَّ أثراً يقوم الرِّجال بتغطيته بالتُّراب بعنايةٍ، لئلَّا تجفَّ من فيح الشَّمسِ الضَّارَّةِ آنذاك قطرةُ دمٍ واحدة.

وفي يومٍ من الأيَّام، جاءت من بعيدٍ امرأةٌ حُبلَى، وهي مُتِمٌّ شارفَتِ الوضعَ، وطلبَتِ المكوث هناك في انتظار أن تضعَ حَمْلَها؛

ولكنَّ الطِّفلَ الذي كان على وشك أن يولَد كان ثميناً، فأُعطِيَت أمُّه أفضل كوخٍ، واثنتان من أكثر النساء خبرةً بقيتا معها لتؤازراها في الولادة؛

ولكن قبل أن يولَد الطِّفل باضعَ رجلٌ اختارته القبيلةُ المرأةَ الحُبلى؛

وبهذه الـطَّريقة بدأ كـلُّ شيءٍ في هـذا المكان ولـيس في مكانٍ آخر، ومع هـذا الـشَّعب ولـيس مـع آخر، ومـع الـحاضـر والمسـتقبل فحسب وليس مع الماضي.

بعد بضعة أيَّامٍ وُلِدَ الطِّفل، وأقيمَتْ أعيادُ ذلك الوقت الكئيبة، وجميع النِّساء أعلنَّ أنفسهنَّ حَبَالَى.

ولكنَّ أمَّ الطِّفل اختفَتْ في نفس اللَّيلة بينما كانت القبائل التي عـبرَتِ الـجبلَ قد بدأتْ تتحـرَّك في السَّهـل مُـيَمِّمَةً شَـطْرَ الـمدينة المسلَّحة.

## 26

بين سفح الجبل وبوَّابة المدينة الأولى قُتِلَ الكثيرُ من الرِّجال والكثيرُ من النِّساء؛

لأنَّ هذا هو شرطُ النَّصر، فكلُّ انتصارٍ يكلِّف نحوَ ثلاثين هزيمةً؛ وحتَّى لأجل حياةٍ واحدةٍ بسيطةٍ، لا بدَّ من أن تحثَّ اثنتان خُطاهما إلى الموت.

لقد قُتلوا وليس في الإمكان ذكرُ أسمائهم، لأنَّهم هم أنفسهم كانوا قد نسوها.

الآنَ فحسب بدأوا شيئاً فشيئاً يستعيدون أسماء بشريَّتهم، كاسمِ الرَّجُل واسم المرأة، وفيما عدا ذلك لم يعرفوا عن أنفسهم سوى اليد التي تمتدُّ إلى الأمام لتتعرَّفَ الأشياءَ التي تراها العيون.

انطرحوا على الأرض بأفواهٍ مفتوحةٍ كما لو أنَّهم يعبِّرون عن ألم الموت، أو يتمتمون بشيءٍ ما من الذَّاكرة التي تتعافى تماماً لحظةَ تضيعُ تماماً؛

سقطوا ورقدوا وماتوا كما لم يحدُثْ مِن قَبل، بأكتافٍ وُسِّدَتِ الأرضَ الصَّلبةَ، وعيونٍ حُوِّلَتْ نحوَ سماءٍ صارَتْ سوداءَ أخيراً.

لم يكنَّ قلائلَ النِّساءُ اللَّاتي واصلْنَ التَّقدُّمَ بعد أن اعتصرَ الألمُ قلوبهنَّ لأنَّ فراغاً خُلِقَ فجأةً في المكان الذي كان جسدُ الرَّجُل يتحرَّك فيه قبل ذلك بقوَّة؛

ولـم يكونوا أقلَّاءَ الـرِّجالُ الـذين تقدَّمـوا مـرتعدين بعد الانزلاق الأخير الـذي لـم يكن لـطيفاً مـن جسد الـمرأة التي كانـت عـظيمةَ الشَّأن كما المدينة.

حـين بلغوا الـبوَّابةَ الأولـى، كانـت الـجثث مـكدَّسـةً بعضها فوق بعضٍ، وعَـبَرَ الأحـياءُ جسراً مـن الـموتى، والأمـواتُ كانـوا الـدَّعـائمَ والقناطرَ وبلاطَ الرَّصْفِ النَّاعمَ والغاصَّ بالألم؛

ثمَّ دخلوا الـمدينة، وفي الفجـر عـدُّوا أنفسهم، وحـين اكـتشفوا أنَّهم أقلُّ عدداً جمعوا موتاهم،

عـلَّهم يستعيدون الـوحـدةَ الأصـليَّةَ ولَـو خلال سُـوَيعاتِ الـرَّثاء القِصار.

# 27

في مياه البحر غسلوا جِراحَهم، وهُمُ الآنَ جالسون على الرِّمال بينما الحرَّاس من أعالي الكثبان الرَّملية يراقبون.

هذا هو ثمن السَّلام عندما يدنو الفجر ويكون الخوفُ من الموت أكثر إنسانيَّةً من الخوف من عدم العيش بما فيه الكفاية.

الغبشُ الذي ما يزال يُخفي المياهَ تفوحُ منه رائحةُ طحالبَ موطوءةٍ وخياشيمَ، ولديه قدرةٌ غيرُ متوقَّعةٍ على تضخيم العضلات الرَّخوة.

إنْ نحن تغاضينا عن الإيقاع غير المسموع تقريباً للموجة، أمكننا القولُ إنَّ الصَّمت يغلق الأفق برمَّته، وسرعان ما يصبح مُطلَقاً حين يبدأ قوسُ الشَّمس الأوَّل بالارتفاع.

لمدَّة دقيقةٍ، يتحوَّلُ العالم إلى لونٍ أحمرَ ناريٍّ، ويبدو الرِّجال والنِّساء كأنَّهم يعومون داخل فرنٍ وخالدون.

كنَّا نتخيَّل سنةَ ألفٍ و993 بعيدةً، غير أنَّ الزَّمن ما يزال زمنها؛

ولكنَّ آمالاً متفرِّقةً تنجو هنا وهناك من المِيْتاتِ اللَّامتناهية ومن الدَّم لدرجةِ أنَّ الشَّمسَ تلتقي على الشَّاطئ قبيلةً تستريح بين معركتين،

وليس كما كان يحدث من قبل، قطيعاً من الكِباش الهاربة تحمل قروحَ عارٍ مكانَ القرون المقتلَعة.

نعم، ببلاغةٍ نسأل أنفسنا إن كان مـن الأفضل لـو كـنَّا نحن مَـن كان يقطع هذا الـشَّاطـئ الملطَّخ بالـدِّماء، مردِّدين بعض الكلمات الحصيفة بصوتٍ منخفضٍ يا أصدقائي،

خاصَّةً وأنَّ سرباً من النَّوارس يقتربُ خافقاً من جهة البحر، وهو أوَّل سربٍ يُرَى بعد أمدٍ طويلٍ جدَّاً، في هذه الأرض المحتلَّة،

علامةً على أنَّ الحياة ربَّما اعترفَتْ بنا في النِّهاية، وأنَّه لم يَضِعْ كلُّ شيءٍ في الدَّناءات التي كنَّا متواطئين فيها أحياناً.

هـا إنَّ الـنَّوارس تحومُ الآن فوقنا، وتحني رؤوسـها قليلاً لـكي ترانا بشكلٍ أفضل وتحدِّد مَن نكون.

في أثناء ذلك، خرجَتِ الشَّمسُ كُلِّيَّاً من الفجر، فيما نحن ننهض بشقِّ الأنفس، مـثخنين بالجِـراح، والحـرَّاسُ ينادون إلـى الـنَّفير لأنَّ العدوَّ يقترب.

## 28

واحـدةً تِلْوَ الأخرى استُعيدَتِ الـمدُن، ومـن كـلِّ حـدبٍ وصـوبٍ تدفَّقَتِ القبائلُ التي بدأَتْ تستحقُّ اسماً مختلفاً؛

بعضُها تقاطرَ من السُّهول كموكبٍ بطيءٍ من النَّمل، وبعضُها جاء صــاعــداً وهــابطاً جوانبَ الــتِّلال، وبعضُها الآخر اتَّخذَ أقصرَ الطُّرق وسطَ المنحدرات الجبليَّة؛

وكــلُّها عَــبَرَتِ الأنهارَ، تخويضاً، أو على قوارب مــؤقَّتةٍ، أو على طوّافاتٍ انساقَتْ مع التَّيَّارات السَّريعة؛

ولـمَّا صارت على مشارف المدن، خرجَ أولـئك الذين كانـوا في داخلها للتَّرحيب بهم يحملون الزَّهرَ والخبزَ؛ لأنَّه إلى كليهما كانـوا جائعين أولئك الذين عاشوا في الأراضي المدمَّرة؛

وقصَّ كلُّ واحـدٍ معاناته على الآخر، وضحكوا دامعِي العيون، وعَرَضوا جروحَ القتال، ثم ذهبوا ليُقاضوا الغزاةَ ويحكموا عليهم جميعاً بالموت دون استثناء؛

ذلك أنَّهم كانوا أسيادَ الموت ومُقاولي التَّعذيب، فحقَّ عليهم الجزاءُ بالعملةِ الوحيدةِ التي كانوا يعرفون؛

ولــكنَّ مـعاركَ كـثيرةً سـتظلُّ تُوْقِعُ الـموتَ بين أولـئك الـذين يضحكون الآنَ ويبكون، لــيس لــلموت الــذي ينتظرهــم، ولــكن لفرحهم بأنَّهم أحياء،

نعم، هذا الشَّعبُ الذي يَعبُر في الشَّوارع، وهذه الأعلامُ، وهذه الـصَّيحاتُ، وهــذه الـقبضاتُ الـمغلقة، فيما الـثَّعابين والـفئران والعناكب التي استُخدِمَت للعدِّ متواريةٌ تحت الأرض؛

نعم، هــذه الـعيون الــبرَّاقة التي تــنطفئ واحــدةً تِلْوَ الأخرى، العيون الزِّئبقيَّة الباردة التي تطفو على رؤوس النَّاس في المدينة.

والآنَ، لا بدَّ من الذَّهابِ إلى الصَّحراء وتدميرِ الهرم الذي بناه الفراعنة على ظهور العبيد وبِعَرَق العبيد،

لا بدَّ من فَصْلِ الحجرِ عن الحجر، لأنَّه ليس ثَمَّ متفجِّرات، ولكن قبل كلِّ شيءٍ لأنَّ هذا العمل يجب أن يُنجَز بيدين عاريتين،

لـكي يكون العملُ بحقٍّ عملَنا، ولـكي تصير ممكنةً كلُّ الأشياء التي لم يسبق لأحدٍ أن وعد النَّاسَ بها، والتي لا يمكن أن توجد من دونهم.

## 29

ثمَّ ارتفعَتْ ريحٌ عـــاتيةٌ ومـــن تخمٍ إلـــى تخمٍ، بين البحـــر وآخرِ الحدود، كَنَسَتْ أرضَ البشر.

لثلاثةِ أيَّامٍ هبَّتْ دونما انقطاعٍ ساحبةً سُحُبَ الحرائق ورائحة اللَّحم الميِّتِ، لحمِ الغزاة.

لثلاثةِ أيَّامٍ رُجَّتِ الأشجارُ رَجّاً، ولكن لم تُقتلَع ولو واحدةٌ منها، لأنَّ هذه الرِّياح كانت أشبه بيدٍ تكادُ تكون ثابتة.

تدحـــرجَتْ جثثُ الـحيوانات الميكانـيكيَّة عـبر الـسُّهول مـثل شُجَيراتٍ مقتلَعةٍ، وكلُّ شيءٍ سُحِبَ بعيداً إلى الجهات التي تولَدُ فيها الكوابيسُ والرُّعب.

ثمَّ جاء المطر، واخضوضرَتِ الأرضُ من فورها، مع قوس قزحٍ عملاقٍ لم يتلاشَ حتَّى عند غروب الشَّمس.

في تلك اللَّيلة الأولى، لم يَنَمْ أحدٌ، وخرجَ النَّاسُ من المدينة ليروا بصورةٍ أفضل الألوان القزحيَّةَ السَّبعةَ على الخلفيَّةِ الشَّديدةِ السَّوادِ للسَّماء.

وكان هـناك أولـئك الـذين بكَوا راكـعين على الأرض الـمُوادِعـة وعلى العشب الذي كانت له رائحةُ الأرض المُسْكِرة؛

وكان هـناك أولـئك الـذين غَنَّوا دونما انقطاعٍ لحناً نشواناً لـم يطرقْ أُذنَ أحدٍ من قبل، وكان هو الآهةَ الطَّويلةَ والنَّاشجةَ لحياةٍ تختنق تماماً في الحلق وهي تولَد؛

وفي الحقول أوقِدَتْ نيرانٌ عالـيةٌ، حتَّى إنَّ الأرض بدَتْ للنَّاظر إليها من السَّماء سماءً أخرى مرصَّعةً بالنُّجوم؛

وسارَ رجلٌ وامرأةٌ بين اللَّيل والأعشاب المهمَلَة، واستلقَيا في الموضع الكريم الذي وُلد فيه قوسُ قزح؛

هناك خلعا ملابسهما، وعاريَين تحت الألوان القزحيَّة السَّبعة آلا طوالَ اللَّيل، على العشب الموطوء الذي تفوح منه رائحةُ نسوغٍ منسكبةٍ، إلى كرةٍ حيَّةٍ من الهمهمات؛

بينما بعيداً في البحر، كان الطَّرف الآخر من قوس قزح يغطسُ في أعماق المياه وكانت الأسماكُ المنبهرةُ تدورُ حولَ عمود الضَّوء.

بزغَ النَّهارُ على أرضٍ حرَّةٍ، حيث الأنهار تجري سِراعاً نِقَاءً، والجبال الزَّرقاء استقرَّتْ لتوِّها فوق السُّهول.

عادت المرأة والرَّجل إلى المدينة، وتركا على الأرض أثراً من سبعة ألوانٍ راحَتْ تضعف ببطءٍ حتَّى اندمَجَتْ بالأخضر المطلَقِ للمروج.

هنا كانت ترعى الحيوانات الحقيقيَّة رافعةً خطومَها المخضلَّةَ بالنَّدى، وكانت الأشجارُ تمتلئ بثمارٍ ثقيلةٍ وحامضةٍ، بينما مركَّباتُ الخريف الكيميائيَّة الحلوة تتحضَّر في جوفها؛

في ذلك الوقت، عاودَ قوسُ قزح الظُّهورَ كلَّ مساءٍ، وهذه علامةٌ جيِّدة.

# 30

ثمَّ مـرَّةً أخرى الأمـاكـنُ الـمعروفةُ ذاتُها، أمـاكـنُ الـعزلـةِ والـموتِ على وجه التَّحـديد، وسـنتيمتراتُ الـتَّعذيبِ الـمربَّعةُ، وألـوانُ الـدَّمِ وصولاً إلى لونه التُّرابيِّ الأخير؛

مرَّةً أخـرى الـقتالُ الـذي لا نهاية لـه ومـرَّةً أخـرى الـمعاركُ، ولا فـرق بين تلك الـرَّابحة وتلك الوضيعة الخاسرة التي لا يرغب أحدٌ في الحديث عنها؛

مـرَّةً أخرى التَّنهُّداتُ، ولا سيَّما تلك الأخيرة وتلك الأولـى وتلك التي بين الجسدِ والجسد، ومرَّةً أخرى الذِّراعُ على الكتف والجسدُ على الجسد؛

مـرَّةً أخرى كـلُّ مـا كانَ، ذاتَ مـرَّةٍ أو عـدَّةَ مـرَّاتٍ، مـن آثار أقدامِ اليوم في طبعاتِ أقدامِ الأمس، ومرَّةً أخرى اليدُ في الحركةِ البادئةِ فالمنتهية، وهكذا دوالَيْك؛

مـرَّةً أخرى الـذَّهـابُ والإياب، والـعياءُ الـمتوقَّعُ الآنَ بين جبلَين شـاهـقَين على أرضٍ حجـريَّةٍ حـيث الـظِّلُّ الـمفاجئُ يبقى، بينما يذوبُ الجسمُ في الهواء؛

فترى الـمرءَ ينظرُ خلسةً إلـى ظلِّه بعينَين لامـرئيَّتَين ويبتسم لـه، فيما النَّاسُ يبحثون بأعينهم حائرين حيث لا يوجد شيء؛

وها طفلٌ يقتربُ ببراءةٍ ويمدُّ يديه نحو الظِّلِّ الذي يحتفظُ من الجسم بسيمائه الهشَّة وليس برائحته؛

مـرَّةً أخرى، وفي الـختامِ، الـعالَـمُ، هـذا الـعالَـمُ، وبعضُ الأشـياء المنجَزَةِ والمرويَّةِ، والكثيرُ غيرها ممَّا لم يُنجَز ولم يدرِ به أحد؛

مرَّةً أخرى استحالةُ أن نَدُوم أو الذِّكرى البسيطة لكوننا وُجِدنا؛

وكما يتَّضح، لا يوجد شيءٌ تحت الظِّلِّ الذي يرفعه الطِّفلُ كما يُرفَعُ عن الذَّبيحةِ جلدُها المسلوخ.





# جوزيه ساراماغو

مِن خطابه في حفل تسلُّم جائزة نوبل للآداب.

7 كانون الأوَّل/ ديسمبر 1998

الرَّجُل الأكثر حكمةً بين مَن عرفتُ من الحكماء لم يكن يعرف القراءةَ ولا الكتابة. في الرَّابعة فجراً، حين كان الوعدُ بنهارٍ جديدٍ ما يزال يتلكَّأ في أرض فرنسا، كان ينهض من فراشه المحشوّ بالقشّ، ويخرج إلى الحقول، مُقتاداً إلى المرعى نصف دزِّينةٍ من إناث الخنازير كان هو وزوجته، جدَّايَ لأمِّي، يعيشان على خصوبتها. [...] أحياناً، في ليالي الصَّيف الحارَّة، بعد العشاء، كان جدِّي يقول لي: «اسمع يا جوزيه، اللَّيلة ننام أنا وأنتَ تحت شجرة التِّين» [...]. في السُّكون اللَّيليِّ المطلَق، بين الفروع العالية للشَّجرة، كان يظهر لي نجمٌ، ثمَّ رويداً رويداً يحتجبُ وراءَ ورقة، وحين كنتُ ألتفتُ إلى الجانب الآخر، كنت أرى الوهجَ البرَّاق لدرب التَّبَّانة وقد انبلجَ مثلَ نهرٍ يتدفَّق في صمتٍ عبرَ السَّماء المقعَّرة. وبينما كان النَّوم يتلكَّأ في الوصول، كانت اللَّيالي تحفل بالحكايات والأخبار التي كان يرويها لي جدِّي: أساطير، وأشباحٌ، وأهوالٌ، ووقائع فريدةٌ، ومِيتاتٌ قديمةٌ، وشِجاراتٌ بالعصيِّ والحجارة، وأقوالُ الأجداد، وذكرياتٌ لا نهاية لها كانت تسرق النَّومَ من عينيَّ وفي الوقت نفسِه تُهدهدُني.

لم أستطع أن أعرف أبداً إنْ كان يصمت حين كان يفطن إلى أنَّني قد غططتُ في النَّوم، أو إن كان يستمرُّ في الكلام لكيلا يقطع في منتصف البئر الإجابةَ على السُّؤال الذي كنتُ أطرحه عليه مع

كـلّ وقفةٍ مـن وقفاته الـطِّوال التي كان يخلّلُها طـوعـاً حكايـتَه: «وماذا حصل بعد ذلك؟».

[...] بعد عـدَّة سنواتٍ، حـين كـنت أكـتب لأوَّل مـرَّةٍ عـن جدِّي جيرونيمو وجدَّتي جوزيفا، أدركـــتُ أنَّني كـــنت أقوم في الـــواقع بتحويل الـشَّخصين الـعاديَّين الـلذين كانـاهـما إلـى شـخصيَّتين أدبيَّتَين، وأنَّ هـذا ربَّما كان السَّـبيل إلـى عـدم نسيانهما، مـن خلال رَسْمِ وإعادةِ رَسْمِ وجهيهما، المرَّةَ تِلْوَ الأخرى، بقلم رصاصٍ لا يكفُّ عن تغيير الذِّكريات [...].

وإذْ كـنتُ أرسمُ والـديَّ وجدَّيَّ بألـوان الأدب، مـحوِّلاً إيَّاهـم مـن أشخاصٍ عاديِّين من لحمٍ ودمٍ إلى شخصيَّاتٍ تعيدُ بطرُقٍ مختلفةٍ بناءَ حـياتي، كـنتُ أتـتبَّع، دون أن ألاحـظ ذلـك، الـمسارَ الـذي ستصنعه لي الشَّخصيَّات الأخرى التي سأبتكرها، تلك الأدبيَّة حقَّاً، آتيةً إليَّ بالموادِّ والأدوات التي ستصنع منِّي في النِّهاية، في الجيِّد وما دون الجيِّد، وفي الكافي وما دون الكافي، وفي الرِّبح والخسارة، وفي الـمنقصةِ، ولـكن أيضاً في الـغلوِّ، ذلـك الـشَّخصَ الـذي مـا أزال إلـى الـيوم أتعرَّفُ فيه نفسي: خالـق تلك الـشَّخصيَّات، وفي الـوقت نفسه مخلوقها.

# إصدارات أمارجي

## شِعر

- "ن" | 2008.
- بِيرودجا: "النَّص- الجسد" | 2009.
- مِلاحاتٌ إيروسيَّة | 2011.
- وردةُ الحيوان، حواريَّة حُبٍّ شعريَّة مع الشَّاعر الإيطاليَّة ماريَّا غراتسيا كالانذْرونِه، تقديم: أدونيس | 2014. (صدرَتْ بالإيطاليَّة 2015).
- بِفَمٍ مليءٍ بالبرق، (شذرات) | 2019.

## ترجمات

- أفكار، جاكومو ليوباردي | 2009.
- الأرض الميِّتة، غابرييل دانُّونتسو | 2012.
- الأعمال الأدبيَّة، ليوناردو دافنشي | 2015.
- الآثار الشِّعريَّة الكاملة لدينو كامبانا، أناشيد أورفيَّة وقصائد أخرى | 2016.
- مَن يوسِّعُ ليَ البحر، ميكِلِ كاكَّامو | 2016.
- شجرة القنفذ والرَّسائل الجديدة، أنطونيو غرامشي | 2016.

- خبزٌ ونبيذ وقصائدُ أخرى، هولدِرْلِن | 2016.
- جسدٌ وسماء، بيير باولو بازوليني | 2016.
- البحرُ المُحيط، ألِسَّاندرو باريكُّو | 2017.
- واحدٌ ولا أحد ومِائة ألف، لويجي بيراندِللو | 2017.
- زهرةُ القيامة: عجائب الألفيَّة الثَّالثة، إمليو سالغاري | 2018.
- غيرةُ اللُّغات، أدريان ن. برافي | 2019.
- القصص، جوزيبِّه تومازي دي لامبيدوزا | 2019.

